وقد أُعجبَ الملكُ بذكاءِ الفتى وكمالِ آدابِه ، وسلامةِ ذوقِه ، فعَرَضَ عليهِ أن يكونَ « ياوراً » للأميرةِ فيروز . فسُرَّ الفتى لهذا الحظِّ العظيمِ الذى نالهُ بفضلِ « بسبس » . وإعزازاً لبسبس ، اشترى لهُ سيِّدُهُ حِذاءً جديداً أحمرَ مُرَصَّعاً بالجواهرِ . وصـــارَ يُقدِّمُ لهُ من الطعامِ الفيرانَ السَّمينةَ ، ومنَ الشرابِ اللبنَ الخالصَ فى أوانٍ من ذهبٍ .

ابن التـــــاجر والعبد

يُحكى أنَّ تاجراً من كِبارِ التُّجَّارِ كان له ابنٌ وحيد يُسمَّى حسَناً . وقد عُنِىَ بتربيتِهِ وتهذيبِهِ حتَّى صارَ موضعَ إعجابِ كلِّ مَنْ رآهُ . فلمَّا كبرَ أظهرَ ميلاً للتِّجارةِ ، ولَمْ يُرِدْ أن يعملَ فى متجرِ أبيهِ ، بلْ فضَّلَ الاعتمادَ على نفسِهِ . ولذلك طلَبَ من أبيهِ مالاً ليُتاجرَ بهِ ، فأعطاهُ أبوهُ مائةَ دينارٍ ، فأخذها حسنٌ ، وسافرَ طلَباً للرِّزقِ .

وبعدَ أيَّامٍ نزلَ ببلْدَةٍ ، وأخذَ يَسيرُ فى شوارعِها يَبحثُ عن بِضاعةٍ يَشْتريها . فمرَّ على رَجُلٍ وامرأةٍ وثلاثةِ أطفالٍ يَبكونَ . فسألَهُمْ عن سببِ بُكائِهم فقالَ الرجُلُ إنَّهُ عطَّارٌ ، وقد شبَّتِ النارُ فى حانوتِهِ فأحرقَتْ جميعَ مافيهِ ولم يَبْقَ لهُ سبيلٌ لِكسْبِ قوتِهِ وقوتِ عِيالِهِ . فلمَّا سمعَ حسنٌ ذلك ، أخذَتْهُ الشفقةُ على هـذه الأُسْرةِ البائسةِ ، وفضَّلَ أنْ يُعطِيَها ما معهُ من الدنانيرِ ، وهو موقنٌ أنَّهُ إذا رَجعَ إلى أبيهِ ، وقصَّ عليهِ قِصَّتَهُ لَنْ يَبْخلَ عليهِ بمثْلِها .

فقالَ للرَّجُلِ : « هاكَ مِائةَ دينارٍ ، فافْتَحْ حانوتاً جديداً تَرْتزِقْ منهُ » . فلَمْ يَكَدِ الرجُلُ يُصدِّقُ أُذنيهِ ، لَوْلا أنَّهُ رأى حسناً يُقدِّمُ لهُ المبلَغَ ، فأخذَهُ ، ومالَ على يدِ حسنٍ ، فقبَّلَها ، وأكثرَ منَ الدعاءِ لهُ .

وعادَ حسنٌ إلى أبيهِ ، وقصَّ عليهِ قِصَّتَهُ . فقالَ لهُ أبوه : « بارَكَ اللهُ لى فيكَ يابُنَيَّ ! لقد أنقذْتَ أُسْرَةً مِنْ ضيقٍ وَقعَتْ فيهِ ، ولَكَ عَلَى فِعلِكَ هـذا منَ اللهِ ثوابٌ عظيمٌ . أمَّا الدنانيرُ التى تَصدَّقْتَ بهـــا ، فهاكَ بَدَلَها مِائَتَيْنِ » . فأخذَ حسنٌ المبلَغَ مِن أبيهِ شاكراً ، وسافرَ مرَّةً أُخرى .

ومرَّ فى طريقِهِ على بلْدَةٍ ، فرَأى فى سُوقِها شخصاً معهُ عبدٌ ، وهو يُنادِى : « يا مَنْ يَشْترى العبدَ وفيـــهِ عَيْبٌ ! » . فقالَ حسنٌ : « وما عيْبُهُ ؟ » قال الرجلُ : « إنَّ عَلَى مَنْ يَشْترِيهِ أنْ يُطيعَ جميعَ أوامرِهِ ، وإذا خالَفَ لهُ

أمراً قطعَ العبدُ رأسَهُ ». فقالَ حسنٌ : « ما سمعتُ قبلَ اليومِ أنَّ العبدَ هو الذى يأمرُ ، والسيّدَ هو الذى يُطيعُ ! ومع ذلكَ فسأشتريهِ لأرَى مايكونُ مِنْ أمرِهِ ! » وسألَ عن ثمنِهِ ، فقالَ لهُ الرجلُ : « إنَّ ثمنَهُ مِائةُ دينارٍ » . فدفعَها حسنٌ ، وأخذَ العبدَ .

وبعدَ أنْ سارا قليلاً ، وصلا إلى مُلتقَى ثلاثةِ طُرُقٍ ، ووَجَدَا عِنْدَهُ شَيْخاً جالساً ، فسألاهُ عن تلكَ الطُّرُقِ ، فقالَ : « هذا طريقُ السلامةِ ، وهذا طريقُ النَّدامةِ ، وأمّا الثالثُ فهو طَريقُ مَنْ ذهبَ فيهِ لايعودُ » . فقالَ العبدُ لِسَيِّدِهِ : « سِرْ بنا فى الطريقِ الذى لا يعودُ مَنْ يَذْهَبُ فيهِ » . فدُهِشَ حسنٌ ، وقالَ للعبدِ : « هَلْ جُنِنْتَ يارجُلُ ، حتى تَتْرُكَ طريقَ السلامةِ ، وتَذْهبَ بنا فى طريقِ الهلاكِ ؟ » قالَ العبدُ « ألَمْ تُعاهِدْنِى علَى ألاَّ تُخالِفَ لى أمْراً ؟ » عِنْدَ ذلكَ سارَ حسنٌ معهُ فى الطريقِ الذى اختارَهُ .

ووَصلا قبلَ الغُروبِ إلى مدينةٍ كَبيرةٍ ، وَجَدا علَى بابِها تِسعةً وثلاثينَ رأساً آدَمِيَّةً مُعلَّقةً . ونَظرَ حَسَنٌ حولَهُ فرَأى خبّازاً يَشْتغِلُ فى مَخْبزِهِ ، فذَهبَ إليهِ ، وسألَهُ عنْ هذه الرُّءوسِ ، فنَظرَ إليهِ الخبّازُ نظرةً غريبةً ، وقالَ : « إنَّ أُقةَ الخُبْزِ ثمنُها قرشٌ ونصفٌ ، وأُقةَ الدقيقِ ثمنُها قرشٌ » ثمَّ تَرَكَهُ إلى عملِهِ . فدَهِشَ حسنٌ لهذا الجوابِ . ورَأى فاكِهانِيًّا يَمُرُّ أمامَهُ ، فسألَهُ عَنِ الرُّءوسِ ، فأجابَهُ قائلاً : « إنَّ ثمنَ أُقةِ العِنَبِ قرشٌ ونصفٌ ، وثمنَ أُقةِ التينِ قرشٌ ، وثمنَ البطّيخةِ قرشانِ » فزادَ دَهَشُ حسنٍ ، وذَهبَ إلى بدّالٍ قريبٍ لَعَلَّهُ يَعرِفُ منهُ قِصَّةَ هذه الرُّءوسِ . فلمَّا سألَهُ عنها ، قالَ البدّالُ : « عِندى جُبْنٌ طازَجٌ ، وزَيْتونٌ من أجودِ الأصنافِ ، وحَلْوَى لامثيلَ لها فى هذهِ البلدةِ » . ثمَّ تَرَكَهُ ، وأخذَ يُرَتِّبُ بضاعتَهُ علَى الرُّفُوفِ . واستمرَّ حسنٌ يَسألُ كلَّ مَنْ يَرَاهُ عن تلكَ الرُّءوسِ ، ولكنَّهُ لم يَظفَرْ بجوابٍ شافٍ .

وأخيراً وصلَ هو والعبدُ إلى دكانِ حلاّقٍ . فدَخلاهُ ، وطَلَبَ حسنٌ من الحلاقِ أنْ يَحلِقَ لَهُ ذَقنَهُ . وفى أثناءِ ذلكَ سألَهُ عَنِ الرُّءوسِ ، فنظرَ الحلاقُ هُنا وهُناكَ ، ولَمَّا لم يجدْ أحداً يَسمعُ كلامَهُ سِوَى حَسَنٍ والعبدِ ، قال له : « إنَّ مَلِكَ هذه البلادِ له بنتٌ بارعةُ الجَمالِ . ولكنَّها تحتَ تأثيرِ سحرٍ قَوِىٍّ أفقدَها النُّطقَ . وقد اشترطَ المَلِكُ علَى كلِّ من يَخْطبُها أنْ يُقابلَها ، فإذا لم يَنْجحْ فى فكِّ هذا السِّحْرِ قَطَعَ رأسَهُ ، وعَلَّقَهُ علَى بابِ المدينةِ . وقد تقدَّمَ أصحابُ هذه الرُّءوسِ لزواجِها ، ولكنها لم تُكلِّمْ أحداً منهُمْ » .

ثم خرجَ حسنٌ معَ عَبْدِهِ ، فقال لهُ العبدُ : « اذْهَبْ فى الغدِ إلى الملكِ ، واطْلُبْ منهُ يَدَ ابنَتِهِ » . فقالَ حَسَنٌ : ألا تَخْشَى أنْ يُصيبَنِى ما أصابَ أولئكَ التِّسعةَ والثلاثينَ ؟ قال العبدُ : « افعَلْ ما آمُرُكَ بهِ » .

ورأى حسن أنّ رأسه مقطوع ، سواء أأطاع أمر العبد أم عصاه ، فأسلم أمره إلى الله ، وذهب صباح اليوم التالى إلى قصر الملك ، وخطب ابنته .

ولما جاءت ليلة الزفاف كان حسن كثير الاضطراب والخوف ، وجعل يندب سوء حظه الذى زين له شراء ذلك العبد . ولكن العبد قال له : « لا تخف يا سيدى ، فان ينالك سوء إذا استمعت لما أقوله لك ، ونفذته بدقة » . قال حسن : « قل ، فإنى مصغ إليك » . فقال العبد : « عند ما تدخل عند الأميرة ألق عليها التحية ، فإذا لم ترد عليك فاجلس وقل : « أسعد الله مساءك (يا شمعدان) الملوك » . وسيرد عليك (الشمعدان) التحية ، ويطلب منك أن تقص عليه قصة فقل له : « إن القصص على صاحب البيت ، لا على الضيف » .

ودخل حسن على عروسه ، وعمل ما أشار به العبد ، فبدأ (الشمعدان) أن يقص عليه القصة الآتية : —

كان لاحد سلاطين الهنود ثلاثة أولاد ، وقعوا جميعا فى حب ابنة عمهم الأميرة نور النهار . وذات يوم دعاهم أبوهم ، وقال لهم : « إنكم يا أولادى تعلمون شغفى بجمع التحف النادرة ، فمن يأتنى منكم بأغرب تحفة فى الدنيا زوجته الأميرة نور النهار » .

فاتفق الإخوة الثلاثة على أن يلتقوا بعد عام فى نزل معين خارج المدينة . ثم سار كل منهم فى طريق مخالف لطريق الآخرين ، يبحث فى الدنيا عن التحفة التى تنيله نور النهار .

فأما أكبرهم الأمير حسين فقد ذهب إلى بسنجار ، حيث وجد دلالا يبيع سجادة بأربعين كيسا من الذهب فقال الأمير : « ولكن هذا ثمن باهظ لأجل سجادة » : فقال الدلال : « كلا ، اجلس عليها ، واطلب أن تكون فى أى مكان تريد » . فجلس عليها ، وطلب أن يكون فى حجرة نومه . وفى لمح البصر وجد نفسه فيها ، ثم طلب أن يعود إلى الدلال فرجع بعد لحظة حيث كان ، ودفع له أربعين كيسا من الذهب ثمنا لهذه التحفة العجيبة ، وهو يقول فى نفسه ، إنه لا شك فائز بنور النهار . وجلس على السجادة ، وطلب أن يكون فى النزل . وفى لمح البصر كان هناك . وبقى ينتظر أخويه .

أما الأخ الثانى الأمير على فقد ذهب إلى شيراز حيث وجد دلالا يبيع (منظارا) بأربعين كيسا من الذهب . فقال : « ولكن هذا ثمن باهظ لهذا (المنظار) » ! فقال الدلال كلا : « انظر خلاله ، وتمن أن ترى ما تشاء » فنظر فيه الأمير ، وتمنى أن يرى نور النهار . وفى الحال رآها بين جواريها فى قصر أبيه السلطان ، فدفع للدلال ما طلب ثمنا لهذه التحفة العجيبة ، وهو يقول فى نفسه ، إنه لا شك فائز بنور النهار . وعاد مسرعا إلى النزل ، وبقى مع أخيه الأمير حسين فى انتظار ثالثهم .

أمّا الأميرُ أحمدُ فقد ذهبَ إلى سَمَرْقَنْدَ حيثُ وَجَدَ الدَّلّالَ يَبيعُ تُفّاحةً بأربعينَ كيساً من الذَّهَبِ . فقالَ : « ولكنَّ هذا ثمنٌ باهظٌ لِتُفّاحةٍ » ! فقالَ الدَّلّالُ ! « كلاّ ، قَدِّمْ هذهِ التُّفّاحةَ لِأنفِ شخصٍ عَلَى وشْكِ المَوْتِ تَرَ مَا يكونُ » . فَسألَ عنْ رَجُلٍ فى النَّزْعِ الأخيرِ ، وقَرَّبَ إلى أنفِهِ التُّفّاحةَ ، فعادَتْ إليهِ صِحَّتُهُ وعافِيَتُهُ فى الحالِ . فَدَفَعَ للدَّلّالِ أربعينَ كيساً مِنَ الذَّهَبِ ثمناً لهذهِ التُّحْفَةِ العجيبةِ ، وَهُوَ يقولُ فى نَفْسِهِ ، إنه لاشكَّ فائزٌ بنُورِ النَّهارِ . وعادَ إلى النُّزُلِ . وعرضَ كلٌّ تُحْفَتَهُ العجيبةَ . فقالَ الأميرُ حُسَيْنٌ : « من الصَّعبِ الحُكْمُ عَلَى أىِّ هذهِ التُّحَفِ أعجبُ مِنَ الأخرَى » وتناوَلَ (المِنْظارَ) ، ونَمَى أنْ يَرَى الأميرةَ نورَ النَّهارِ ، فَصَرَخَ من هَوْلِ ما رَأى ، إذْ وَجَدَها طَريحةَ الفِراشِ ، تُغالِبُ سَكَراتِ المَوْتِ ، وحَوْلَها وَصِيفاتُها يَبْكِينَ . فقالَ الأميرُ أحمدُ : « أسْرِعُوا وامْتَطُوا السَّجّادَةَ » وفى لَمْحِ البَصَرِ كانوا بجانبِ فِراشِ الأميرةِ . فَقَدَّمَ الأميرُ أحمدُ تفاحَتَهُ نَحْوَ أنفِها ، فَعادَتْ إليها صِحَّتُها فى الحالِ .

ثمّ قالَ (الشمَمْدانُ) : « فَلِمَنْ تَظُنُّونَ أنَّ السُّلطانَ قد حَكَمَ ؟ » فقالَ حسَنٌ : « لاشكَّ أنَّهُ حَكَمَ لصاحبِ (المِنْظارِ) . فَلَوْلاهُ لَما عَلِموا بِمَرَضِ نورِ النَّهارِ » . فَرَدَّتِ الأميرةُ قائلةً : « كلاّ ! لابُدَّ أنَّهُ حَكَمَ لِصاحبِ التُّفّاحةِ !! فَلَوْلاها لَمَا عاشَتْ نُورُ النَّهارِ » . فقالَ (الشمَمْدانُ) : « هكذا قالَ الأميرانِ عَلِيٌّ وأحمدُ . ولكنَّ السلطانَ رَدَّ عليهما قائلاً : « ولَوْلا السَّجّادَةُ يا ولدَىَّ ما تمكَّنْتُمْ مِن العَوْدةِ بالسُّرْعَةِ الكافيةِ لإنقاذِها . فَلِكلٍّ مِنكم نَصيبٌ مُساوٍ لِنصيبِ الآخَرِ فى نَجاتِها . ولذلكَ أقْتَرِحُ امْتِحانَكم فى الرِّمايةِ فَلْيَأْخُذْ كلٌّ مِنكمْ قَوْساً ونُشّاباً ، ولْنَخْرُجْ إلى السَّهْلِ الواسِعِ . فَمَنْ أرْسَلَ سَهْمَهُ إلى أبعدِ مسافةٍ كانتِ الأميرةُ لَهُ »

فَهَرَعَ الناسُ مِن كلِّ جانبٍ لِرُؤْيَةِ المُبارَاةِ . فَرَمَى الأميرُ حُسَيْنٌ سَهْمَهُ بعيداً ، وَرَمَى الأميرُ عَلِيٌّ سَهْمَهُ أبعدَ